

الفصل الثالث

أعراف ومُثل قبلية

أعراف ومثل قبلية

كان للبيئة الطبيعية، والظروف التي أحاطت بالقبائل العربية، أثر كبير في حياتهم الاجتماعية، وفي خلق نوع من الأعراف والمثل، تركزت فيما نستطيع أن نسميه المروءة، تغنى العربي بها في شعره وأدبه.

وهي وأن كان من الصعب تحديدها بدقة، إلا أنه من الممكن القول: "أنها تعتمد على الشجاعة والكرم، فتتجلى شجاعته في كثرة من نازله وقاتله، وفي مواقف دفاعه عن قبيلته، وأكثر من هذا في نجدته، وأما كرمه فيتجلى في نحر الجزور للضيف، وإغاثة البائس الفقير، وفوق هذا أن يعطي أكثر مما يأخذ، وأن يغشى الوغى، ويعف عن المغنم"⁽¹⁾.

1- الكرم :

من أهم الفضائل الضرورية لمن يعيش في الصحراء، وخصلة من الخصال الحميدة عند العرب، ودرس من الدروس التي لقنتها الطبيعة للإنسان، وباعتبار أن حياتهم ترحال وتجوال، فكل واحد منهم معرض لأن ينفذ زاده، ولا بد أن يكون لجووه لأية خيمة في طلب الطعام أمرا مشروعا، ومتعارفا عليه حتى لا يهلك جوعا وعطشا، لذلك فمن يقري ضيفه اليوم، سيلقى من يقريه غداً، أما بذل المال في نظرهم فهو وسيلة إلى الحياة الشريفة، وكسب المحامد والسيادة كقول حاتم⁽²⁾ :

(1) : أمين: فجر الاسلام ص10

(2) : ديوان حاتم الطائي، دار صادر بيروت 1401 هـ - ص41 يختصر إلى ديوان حاتم، حويف: الحياة العربية ص310، حسن: حضارة ص90، سالم ص441، دلوج ص371

يقولون لي أهلك مالك فاقتصد وما كنت لولا ما تقولون سيدا

لذلك أشادوا بالكرم والكرماء، قال كعب بن زهير⁽³⁾ :

هم الأصل مني حيث كنت وأنني من المزنيين⁽⁴⁾ المصفين⁽⁵⁾ بالكرم

فكرمهم لم يقف عند حد إعطاء شخص جائع ما يسد رمقه، بل وصل حد التضحية بأعز الأشياء وأثمنها لتوفير الرفاه له الذي يفوق كثيرا حدود الحاجة الضرورية، فافتخروا بتقديمهم له أشهى ما يملكون، ويكون ذلك بذبح الناقة العشار⁽⁶⁾، وتلقوا ضيفهم بالبشر والطلاقة، وتبسطوا معه في الحديث، وقالوا تمام الضيافة، الطلاقة عند أول وهلة وإطالة الحديث عند المؤاكلة، قال عروة بن الورد⁽⁷⁾ :

سلي الجائع الغرثان يا أم مننر إذا ما آتاني بين ناري ومجزري

هل أبسط وجهي أنه أول القرى وأبذل معروفي له دون تنكري

وقال أيضا⁽⁸⁾ :

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهنني عنه غزال مقنع

أحله إن الحديث من القرى وتعلم نفسي أنه سوف يهجع⁽⁹⁾

(3) : ثعلب: شرح ديوان زهير ص9

(4) : المزنيين: من مزّن وهي الإسراع في طلب الحاجة، لسان العرب مادة مزن

(5) : المصفين: من صفا واستصفى واصطفى أي أختار، لسان العرب مادة صفا

(6) : جمع عشاء: ناقة أتى على حملها عشرة أشهر وهي عند العرب أعز الإبل، لسان العرب مادة عشر.

(7) : ديوان عروة ص90، الجاحظ: (أبي عثمان عمرو بن بحر) البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي بمصر ط2 1380 هـ - 1960 م ج1 ص10 يختصر إلى البيان والتبيين وقد نسبت الأبيات لحاتم

في كتاب البيان والتبيين، التبريزي ديوان الحماسة ج2 ص258

(8) : ديوان عروة ص101، البيان والتبيين ج1 ص10، حوي: الحياة العربية ص321 حسن: حضارة ص90

(9) : يهجع ينام ليلا، لسان العرب مادة هجع

وقال آخر⁽¹⁰⁾:

انك يا ابن جعفر خير فتى وخيرهم لطارق إذا أتى
ورب نضو طرق الحي سرى صادف راداً وحياً ما اشتى

إن الحديث جانب من القرى لذلك فرحوا بالضيف واعزوه، وبالفوا في الحفاوة به، لدرجة أنهم صاروا كالعبيد له، وشرفوا بهذه العبودية، كقول حاتم⁽¹¹⁾:
واني لعبد الضيف مادام ثلويًا⁽¹²⁾. وما في إلاتك من شيمة⁽¹³⁾، العبد

أضف إلى ذلك أنهم سخوا على الأرامل واليتامى والسائلين إذا ما اشتد البرد، وشح المطر، ولم يجد الناس طعاماً، لأنه كرم في وقت تحرص النفوس فيه على البقاء، والاحتفاظ بالمال، لهذا عرف الواحد منهم بقاتل الشتاء⁽¹⁵⁾، وفي ذلك قول الخنساء في رثاء أخيها صخر⁽¹⁶⁾.

وأن صخرًا لوالينا وسيدنا وإن صخرًا إذا نشـتـوتـونـحـار

وعملوا على صلة الأرحام، وإعطاء السؤال، قال ابن ربيعي الهذلي في رثاء رقيبة⁽¹⁷⁾:

أعيني ألاف ابكي رقيبة أنه وصول لأرحام ومعطاء سائل

(10): البيان والتبيين ج 1 ص 10، التبزي، ديوان الحماسة ج 2 ص 352

(11): ديوان حاتم ص 44، أوسي ج 1 ص 75، جرجس أديان ص 147، حسن: حضارة ص 90 سالم ص 442.

(12): الثواء طول المقام، لسان العرب مادة ثوا

(13): شيمة: الخلق، لسان العرب مادة شيم

(15): لسان العرب مادة قتل.

(16): ديوان الخنساء، دار الأندلس، بيروت لبنان ط 6 1389 هـ 1969 م ص 51 يختصر إلى ديوان

الخنساء، الأغاني ج 15 ص 81، الحوي: الحياة العربية ص 314، حسن: حضارة ص 90، سالم ص 442

(17): البيان والتبيين ج 1 ص 213، حوي: الحياة العربية ص 313، حسن: حضارة ص 90

فأقسم لو أنركته لحميته وإن كان لم يترك مقالاً لقائل

ومن عجيب أمرهم في الكرم أن بعضهم، كان يؤثر المحتاجين على نفسه وأولاده، فقد ذبح حاتم فرسه من أجل أن جاءت جارة له تشكو إليه جوع بنيتها قائلة: أتيتك من صبية يتعاونون من الجوع، ولم يكن لديه ما يعطيها، فذبح فرسه مع أنه وعائلته جوعاً مثل صبيته ولما عارضته زوجته في ذبح الفرس، قال لها: أقللي اللوم والعذلا، فإنه للوم أن تأكلوا وأهل الحي جوعاً⁽¹⁸⁾ ولقد هلك كعب بن مامة الأيادي بسبب جوده عطشاً، لأنه أعطى الماء لغيره وهو بحاجة لقطرة ماء⁽¹⁹⁾ فأى نوع من التكامل الاجتماعي وصل إليه المجتمع؟ ولماذا الغزو والسلب والنهب؟

هذا الكرم الذي لم يكن ليقف عند حد، كان انعكاساً لشدة الجوع الذي عانى منه المجتمع في البيئة الصحراوية القاسية، وهؤلاء الذين وصفوا بالكرم قلائل بالنسبة لغالبية المجتمع.

وقد يسدل الليل أستاره، والغرباء يضربون في الصحراء، وهم بحاجة إلى زاد وماء أومبيت، فمن الذي يهديهم إلى محلة أونجج؟

تهديهم النار التي يوقدها الأجواد لهداية الغرباء واجتذابهم، وتهديهم النار التي يوقدها العرب لإنضاج الطعام، أوللاستدقاء، لذا فقد اكثروا من التحدث عن نار القرى⁽²⁰⁾ التي توقد في الأماكن المرتفعة لتكون أشهر وأوضح، قال عمرو بن عبد الله القجلي مفتخراً⁽²¹⁾:

إذا أخمست النيران من حنار القرى رأيت سناناري يشب اضطرارها

(18) : العقد الفريد ج 1 ص 242 - 243 الحوي في الحياة العربية ص 313، حسن حضارة ص 91

(19) : العقد الفريد ج 1 ص 246، الواسي ج 1 ص 81، حسن: حضارة ص 90.

(20) : سبائك ص 464، الواسي ج 1 ص 69، حوي في الحياة العربية ص 317، حسن: حضارة ص 91

(21) : المرزباني معجم الشعراء ص 223، الحوي في الحياة العربية ص 317 حسن: حضارة ص 91.

أما حاتم فقد كان يعد غلمانة بالعق إذا جلبوا ضيفا أثناء إقصادهم النار بقوله (22)

أوقد فان الليل ليل قر والريح يا غلام ريح صر

عل يرى نارك من يمر أن جلبت ضيفا فآنت حر

وإذا ضل الساري ليلا، وتحير فلم يدر أين البيوت، نبحث الكلاب فقصد صوتها، لذلك كنوا عن كرم الرجل بجبن كلبه، لانه ينبج في الليل، فإذا ما رأى الغرياء، كف لأنه قد اعتاد أن يطرق الدار غرياء، قال حسان بن ثابت (23) :

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون من السواد المقبل

وقول شريح بن الأحوص (24) :

ومستنجح يبغي المبيت ودونه بيته من الليل سحفا ظلمة وستورها

رفعت له ناري فلما اهتدى بها زجرت كلابي أن يهر عقورها

وقول آخر (25) :

ومستنجح بات الصلح يستتبهه فتاه وحوزل الليل مضطرب الكسر

رفعت له نارا ثقوبا زنادها تليح إلى الساري هلم إلى قاري

(22) : ديوان حاتم ص 59، العقد الفريد ج 1 ص 242، آلوسي ج 1 ص 78، الحويحي الحياة العربية ص 317.

جرجس: أديان ص 48، حسن حضارة ص 91، سالم ص 443

(23) : الأغاني ج 15 ص 158، ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص 306، حسن: حضارة ص 92

(24) : التبريزي: ديوان الحماسة ج 2 ص 329، آلوسي ج 1 ص 66

(25) : القالي (أبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي)، الأمالي ط 3 - 1373 هـ 1954 م، مطبعة السعادة

بمصر ج 1 ص 207 - 208 يختصر إلى الأمالي، حويحي: الحياة العربية ص 318 - 319 - حسن: حضارة

ص 92

وكانت تطير الشول عرفان صوته ولم تمس إلا وهي خائفة العقر

فالشعر حافل بذكر النار، ويوصف الكلاب بالجبن والأنس إلى الوافدين، وهذا دلالة على الكرم، لأنه من دواعي الهجاء عند شعراء الجاهلية إطفاء النار عندما تستتبح الكلاب، عبر عن ذلك الاخلل في هجائه لجريير بقوله⁽²⁶⁾:

قوم إذا استتبح الأضياف كلهم قالوا لأهمهم بولي على النار.

فالكرم أثير عندهم، والدليل على ذلك أنه كان من بواعث الميسر عند أجوادهم وأثريائهم إذا اشتد البرد وقلب الزمان، ليطلعوا ذوي الحاجة الجزور التي تياسروا عليها وهي عشرة جزور يجزؤنها ثمانية وعشرين جزءاً، فإذا قمر أحدهم جعل أجزاء الجزور لذوي الحاجة والفقراء، عبر عن ذلك ليبيد بن مالك بقوله⁽³⁷⁾:

وجزور أيسار دعوت لحقتها بمغالق متشابه أجسامها

أدعوبهن لعاقراً ومظفل بذلت لجيران، الجميع لحامها

فالضييف والجار الجنيب كأنما هبطا قبالة⁽²⁸⁾ مخصباً أهضامها

أن شيوع الكرم وتقديرهم للكرماء، وفخرهم بهم دليل على أنهم قمعوا شر نفوسهم، وتغلبوا على شحها، وآثروا غيرهم على أنفسهم، وأشركوهم في خيرهم، لكن هذا لا ينفي أن بعضهم كان على بخل يضمن بماله على السؤال ويتهرب من

⁽²⁶⁾ حسين (محمد) الهجاء والهجاؤن - بيروت 1960 ص 40 يختصر إلى الهجاء والهجاؤن، سالم ص 442

⁽³⁷⁾ شرح ديوان لبيد، تحقيق الدكتور إحسان عباس - ط2 مطبعة حكومة الكويت 1984 - ص 318 يختصر إلى شرح ديوان لبيد، زوزني: شرح المعلقات السبع مكتبة المعارف بيروت ط4 1980 ص 248 - يختصر إلى زوزني - شرح المعلقات السبع، آلوسي ج 1 ص 71

⁽²⁸⁾ قبالة موضع ببلاد اليمن يضرب المثل بخصبه وهي بلدة مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن، ياقوت مادة قبالة.

النوال، لأن تنفيرهم من الشيء دليل على وجوده، وإلا فلماذا يهجونه وينفرون منه ؟ وذلك لأن البخل والطمع آفة من آفات الحياة الاجتماعية، فبهذا قدرنا معنى الإنسانية الحقيقية، لأن الكرم وإقراء الضيف يؤلف القلوب ويربط بين أبناء المجتمع.

2- الشجاعة:

من بين الصفات الخلقية الأخرى لعرب الحجاز في القرن السادس الميلادي، فهي حلية العربي لبسها وتلبسه سواء أكان غنيا أم فقيرا، ذا قبيل أم وحيدا، ذلك لأن أهل البادية متفردون عن المجتمع، بعيدون عن الحامية يعيشون في العراء، غير محتمين بأسوار، أو جدران، أو أبواب ترد عنهم، فهم يقومون بالدفاع عن أنفسهم، ولا يكلونه إلى سواهم، يحملون السلاح دائما، ويتلفتون عن كل جانب، ويتجافون عن الهجوم، ويتوجسون للنبات والهيئات وينفردون في البيداء، مدلين ببأسهم، واثقين بأنفسهم، حتى صار لهم البأس خلقاً، والشجاعة سجية⁽²⁹⁾.

وليس أدل على صدق هذا القول من أن قريشا عندما أثرت بسبب التجارة انصرفت عن شئون الحرب، والبدوي يحقرون التجارة بطبيعتهم، فصاروا يعيرونها بها، ومن هنا كانت استهانة بعض العرب بقريش وعدم الهيبة منها لانكبابها على التجارة، وانصرافها عن الحروب من دون سائر العرب⁽³⁰⁾.

فإذا تقصينا حياة العربي منذ طفولته، أدركنا أن الشجاعة ولدت معه، كيف لا وقد ربي في بيئة تتمدح بالبطولة والأقدام، وحسن البلاء في حماية الذمار، والأخذ بالثأر، فقد سمع قعقة السلاح وهو صغير، وشهد المعارك، وصيحات الشجعان وهو يافع، وروث له أمه أخبار البطولة والأبطال الذين حموا القبيلة، وردوا المغيرين عليها، فتأقت نفسه للمشاركة بها، وعندما شب رأى بأم عينه السيوف تتقارع، والأسلحة تشتبك، والأبطال في ميدان الوغى تتنازع، ثم كبر فشارك في المواقع، وأفنى العمر في المعارك، فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقا عاما عند العرب، وأسموها الموت في

(29) ابن خلدون: المقدمة ص125، حسن: حضارة ص93، سالم 444

(30) أفغاني: أسواق ص126، سالم ص444

ظلال السيوف وخفق البنود، لأن الموت حتف الأنف، وعلى الفراش أوضع منزلة، ولا تليق بالرجل، وفي ذلك قول السموأل مفتخراً⁽³¹⁾ :

وانا لقوم ما نرى القتل سبة إذا ما رأته عامروس لول

يقرب حب الموت أجائنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

وما مات منا سيد حتف انفه ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظبابة نفوسنا وليسست على غير الظبابة تسيل

ورأوا أن الإقدام لا يذني الأجل، وأن الحياة الجديرة بالبقاء إنما هي حياة الفتوة والمجد والشجاعة، وفرار المحارب من لقاء أعدائه موت له في دنياه، وقد عبر الشاعر الحصين بن الحمام المري عن ذلك بقوله⁽³²⁾ :

تأخرت استبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقاعدا

فلسنا على الأعقاب تلمي كلومنا⁽²³⁾ ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وفي هذا قول عنتره أيضاً⁽³⁴⁾ :

بكرت تخوفني الحتوف كأنني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبت لها أن المنيعة منهل لا بد أن أسقى بكأس منهل

فاقني حياءك لا أبالك واعلمي اني امرؤ ساموت إن لم أقتل

أن المنيعة لو تمثّل مثلث مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل

(31) : التبريزي: ديوان الحماسة ج 1 ص 29، حوي: الحياة العربية ص 332

(32) : التبريزي: ديوان الحماسة ج 1 ص 60 - 61، الحوي: الحياة العربية ص 333 حسن: حضارة ص 94.

(23) : كلومنا: جراحنا لسان العرب مادة كلم

(34) : ديوان عنتره ص 97 - 98، العقد الفريد ج 1 ص 97، الحوي: الحياة العربية ص 333

والخيل ساهمة الوجه كأنما تسقى فوارسها نقيع الحنظل

وإذا حملت على الكريهة لم أقل بعد الكريهة لي تني لم أفعل

فالكثيرون منهم اشتهروا بالشجاعة، واستطابوا الموت في المعارك وصبروا عند كل لقاء عنيف، قال حارثة بن بدر⁽³⁵⁾:

وشيب رأسي واستخف حلومنا رعود المنايا فوقنا وبروقها

وأنا لتستحلي المنايا نفوسنا وتترك أخرى مرة ما تنوقها

رأيت المنايا بادئات وعودا إلى دارنا سهلا إليها طريقها

وقول آخر⁽³⁶⁾:

صبرنا له حتى ييخ وإنما تُفزع أيام الكريهة بالصبر

فالفرسان والشجعان يزدحمون ببسالتهم خاصة أثناء حديثهم إلى حبيباتهم وزوجاتهم، وفي ذلك قول عامر بن الطفيل لزوجته⁽³⁷⁾:

طلقت إن لم تسألني أي فارس حليتك إذ لاقى صلاء وخنمها

أكر عليهم دعلجاً ولباناً إذا ما اشتكى وقع الرماح تحمحمها⁽³⁸⁾

قد يقال أن شجاعتهم تهور، ولكن الذي نسميه تهورا، كان الشجاعة في أعلى مراتبها في نظر أولئك الشجعان، وإلا فما بال أبي سليح طريف بن غنم العنبري يأنف من أن يتقنع في المواسم والجموع كما يفعل الناس ولا يبالي أن يعرفه جميع فرسان

⁽³⁵⁾ : الأغاني ج 8 ص 401، الحوي: الحياة العربية ص 334، حسن: حضارة ص 95

⁽³⁶⁾ : عيون الأخبار ج 1 ص 125، الحوي: الحياة العربية ص 334

⁽³⁷⁾ : التبريزي: ديوان الحماسة ج 1 ص 43، الحوي: الحياة العربية ص 334،

⁽³⁸⁾ : الدعلج اسم فرسه، واللبان اسم لما جرى عليه اللبيب من الصدر، والتحمحم التصويت دون الصهيل،

التبريزي ديوان الحماسة ج 1 ص 43 حاشية

العرب⁽³⁹⁾. وقد عير درهم بن يزيد بن صنبة مالك بن العجلات لأنه كان إذا شهد الحرب غير لباسه وتكرر لثلا يعرف فيقصد⁽⁴⁰⁾.

انك لاق غدا غواة بني عمي فانظر ما أنت مزهف

فأبد سيماك يعرفوك كما ييئون سيماهم فتعترف

فالشجاع الصنديد يعلم نفسه بشارة كأنه يتحدى أعداءه، ويقول لهم: ها آنذا كما فعل حمزة يوم بدر فقد كان معلما بريشة نعامة حمراء، وكان الزبير بن العوام معلما بعمامة صفراء⁽⁴¹⁾. ولقد اعتبروا أن القتل في الحرب مجد وشرف، لذا فلا تنوح النساء على القتل قال عمرو بن كلثوم⁽⁴²⁾:

معاذ الله أن تنوح نساؤنا على هالك أن تضج من القتل

وقد اصطحبوا نساءهم معهم لبيعن الحمية والحماسة والبسالة فيهم كما فعلت مذحج يوم فيف الريح، فقد كانت معهم النساء والذراي حتى لا يفروا فأما ظفروا، وأما قتلوا جميعا⁽⁴³⁾. قال عمرو بن كلثوم⁽⁴⁴⁾:

على آثارنا بيض حسان نحذر أن نقسم أونهوذا

أخائن على بعولتهن عها إذا لاقوا كتائب معلمينا

ليس تلبن أفراسا وبيضا وأسرى في الحديد مقرنينا

(39) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج 1 ص 315، البيان والتبيين ج 3 ص 101 حاشية، حسن: حضارة ص 95

(40) البيان والتبيين ج 3 ص 101 - 102، الحوي: الحياة العربية ص 336

(41) مغازي الواقي ج 1 ص 76، البيان والتبيين ج 3 ص 101، الحوي: الحياة العربية ص 336.

(42) التبريزي: ديوان الحماسة ج 1 ص 183، الحوي: الحياة العربية ص 337، حسن: حضارة ص 95

(43) الكامل في التاريخ ج 1 ص 633، جاد المولى: أيام العرب ص 132، الحوي: الحياة العربية ص 337.

(44) الشنقيطي (أحمد أمين) المعلقات العشر - دار الكتاب العربي سورية حلب ص 118، يختصر إلى

شنقيطي المعلقات الشعر، الحوي: الحياة العربية ص 338

يقتنُ جياننا ويقلن لستم بعولتت إذا لم تمنعوننا

ولشدة ولعهم بالشجاعة، شهدوا بها لأعدائهم، فأنصفوهم اعترافاً وإعجاباً وتقديراً للشجعان، كقول خدش بن زهير بن ربيعة⁽⁴⁵⁾:

فأبلغ أن عرضت بنا هشاماً وعبد الله أبانغ والوليد

نولئك أن يكن في الناس خير فإن لآديهم حسبا وجودا

هم خير المعاشر من قريش وأوراهم إذا قاحت زنودا

بأنايوم شمطة قد أقمنا عمود المجاد أن لله عمودا

فجأؤا عارضاً⁽⁴⁶⁾ بردا وجئنا كما أضرمت في الغاب الوقودا

فعانقنا الكماة⁽⁴⁷⁾ وعانقونا عراك النمر واجهت الأسود

فلم أرمناهم هزموا وقلوا ولا كنا لنا عتقنا نجادا

فهل كان اعترافهم بشجاعة الخصم لابرأز شدة شجاعتهم ؟ بالطبع كانت الشجاعة تطبيقاً لحاجات الوسط الطبيعية والاجتماعية، وركن من أركانها لأن الجبن، والفرار من المعركة عار ومذلة قال زهير في معلقته⁽⁴⁸⁾:

ومن لم يلد عن حوضه بسلاحه يهائم ومن لا يظلم الناس يظلم

⁽⁴⁵⁾ ابن سلام الجمحي (أبو عبد الله) طبقات الشعراء ص 53 - 45 يختصر إلى ابن سلام طبقات الشعراء،

جاد المولى: أيام العرب ص 332، الحوي: الحياة العربية ص 340.

⁽⁴⁶⁾ العارض السحاب الممطر أي أنهم أمطروا سهاماً، لسان العرب مادة عرض

⁽⁴⁷⁾ الكماة: جمع كمي وهو الشجاع لسان العرب مادة كمي

⁽⁴⁸⁾ زوزني: شرح المعلقات السبع ص 158، شنقيطي: المعلقات العشر ص 95، الحوي: الحياة العربية ص

348، الجندي (علي) في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة الشباب ص 74 يختصر إلى الجندي في تاريخ الأدب.

وذلك لان بيئتهم شحيحة الأرزاق، وقد اعتادوا السلب والنهب والغارة، فان لم يكونوا شجعانا فستسلب أموالهم، وتسبى نساؤهم، قد يتحولن إلى إماء أو عبيد، وفي كل ذلك امتهان ومذلة، فبالقوة والرهبة استطاعوا حماية الحمى، والذنب عن الحريم واثبات الوجود، وحماية الجار، وتكوين الأحلاف، وتمتين الروابط القبلية مما كان لهذا اثر في التمهيد لتضامن عربي شامل عززه الاسلام فيما بعد.

3- الوفاء:

إذا كان الكرم والشجاعة من ضرورات الحياة في الصحراء، فان الوفاء من أهم العناصر المكونة للأخلاق عند العرب فرضتها البيئة الصحراوية القاسية، وأقرها المجتمع، فكانت الكلمة ينطقها الرجل عهدا يجب عليه الوفاء به، فإذا أعطى رجل رجلا عهدا فلا يسعه أن يغير به، ولا بد له من المحافظة على العهد، وقد يضحي الإنسان بنفسه وبماله وبولده على أن يخلص سمعته فيوسم بالغدر فقد حكى أن امرأ القيس قد أودع السموأل بن عاد ياء مائة درع، فأتاه الحارث بن ظالم، ويقال الحارث بن ابي شمر الغساني ليأخذها منه، فتحصن منه السموأل فأخذ الحارث ابنا له غلاما كان في الصيد وقال: إما أن تسلم الدروع إلي، وإما أن اقتل ابنك، فأبى السموأل، أن يسلمها اليه، فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فقطعه قطعتين وفي ذلك قال السموأل⁽⁴⁹⁾:

وفيت بنمة الكندي	اني إذا ما ذم أقوام وفيت
ولو صي عاديأ يومأبألا	تهام يا سموأل ما بنيت
بنى لي عاديأ حصنا حصينا	وماء كل ما شئت استقيت

(49) الأغاني ج 22 ص 119، حوي: الحياة العربية ص 359، حسن: حضارة ص 86، سائم ص 331 -

وقد أشاد الأعشى بهذه الأريحية في مدحه لشريح حين وقع أسيرا في يد رجل كلبي، كان الأعشى قد هجاه، ومربه شريح فاستغاث به ليخلصه، فذكره أولا بكرم أبيه السموأل، ثم عرض لوفائه فقال⁽⁵⁰⁾:

كن كالسموأل إذ سار الهمام له في جحفل كسواد الليل جرار

إذا سامه خطى خسف فقال له: مهما ثقله فإني سامع حار

فقال: تكل وغار أنت بينهما فاختر وما فيهما حظ مختار

فشك غير قليل، ثم قال له: انبح هايك أني مانع جاري

واختار أذراعه أن لا يسب بها ولم يكن عهد فيه اختار

لذا ضرب المثل به في الوفاء حتى قيل أوفى من السموأل⁽⁵¹⁾ كذلك ضرب المثل بوفاء عوف بن محلم وأبي حنبل⁽⁵²⁾ وغيرهم كثير.

وقد عد الوفاء محمداً وواجباً ولتوكيده وترسيخه، كانوا يتعاقدون على الدم والرب والماء والطيب، ويتمسحون بالكعبة، كما فصلنا ذلك أثناء الحديث عن الأحلاف القبلية. فإذا غدر أحدهم رفعوا له لواء بسوق عكاظ ليشهروا به، لأن الغدر عادة ذميمة، وفي ذلك قول قطبة بن أوس مفتخرا أنه من قوم لم يغدروا، وإنهم لا يأتون ما يشكك حليفهم فيهم⁽⁵³⁾:

اسمي ويحك هل سمعت بغارة رفع اللواء لنا بها في مجمع؟

(50) ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق محمد حسين. مكتبة الآداب بالجماميز ص 79 - 181 يختصر إلى ديوان الأعشى، الأغاني: ج 9 ص 119، الحوي: الحياة العربية ص 359، حسن: حضارة ص 86.

(51) الميداني: مجمع الأمثال ج 2 ص 374، الألوسي ج 1 ص 122

(52) الميداني: مجمع الأمثال ج 2 ص 375 - 377

(53) النويهي: (محمد) الشعر الجاهلي - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ج 1 ص 211، يختصر إلى

الشعر الجاهلي، الحوي: الحياة العربية ص 358، حسن: حضارة ص 85، علي: المفصل ج 4 ص 403 .

انا نعرف فلانا قريب حليفنا : ونكف شح نفوسنا في المطمع

وأوقدوا للغادر نارا سموها نار الغدر ليحذره الناس وفي ذلك قول الشاعر⁽⁵⁴⁾ :

وتوقد ناركم شررا ويرفع لكم في كل مجمعة لواء

وربما جعلوا للغادر تمثالا من طين، نصبوه ليراه الناس، وكانوا يقولون : ألا أن فلانا قد غدر فالعنوه جاء في الشعر⁽⁵⁵⁾ :

فلنقتلن بخالد سـروا نكم ولنجعلن لظالم تمثالا

وبذلك انتشر الأمان والطمأنينة، وطردت المخاوف والهواجس برغم ما عرف عن العرب في الجاهلية من عنجهية، وما وصفوا به من الغزو والنهب، لأن الحفاظ على الأمانات كانت من أهم المظاهر الخلقية التي حددت سلوكهم فبذلك لطف جوالصحراء وقساوة البيئة.

4 - العفة والشرف:

ومما كان يرفع من القدر، ويزيد من المكانة والشرف العفة، ففي بيئة تمرس أهلها على الأخلاق، لا بد للرجال والنساء من الغيرة على العرض، حتى ولو وجد من انغمس في الملذات، وتغزل بالنساء غزلا بعيدا عن البراءة، وذلك لأن العفة شرط من شروط السيادة كالشجاعة والكرم⁽⁵⁶⁾. فقد كانت موضع فخر لهم كقول عنتره⁽⁵⁷⁾ :

وأغض طريفي ما بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها

⁽⁵⁴⁾ نهاية الأرب ج1 ص111، ثعلب شرح ديوان زهير ص85، اللؤسي ج2 ص162، جواد: المفصل ج4 ص403 حاشية.

⁽⁵⁵⁾ اللؤسي ج3 ص28، جواد: المفصل ج4 ص403.

⁽⁵⁶⁾ الحوي: الحياة العربية ص363، سالم ص445، حسن: حضارة ص95-96.

⁽⁵⁷⁾ ديوان عنتره بن شداد - دار كرم بدمشق ص154 يختصر إلى ديوان عنتره بن شداد - الحوي: الحياة العربية ص364، سالم 445.

ولبيد في قوله⁽⁵⁸⁾ :

أفي العرض بالمال التلاد واشتري به الحمد إن الطالب الحمد مشتري

وكم مشتر من ماله حسن صيته لأيامه في كل مبدىء ومحضر

أباهي به الأكفاء في كل موطن وأقضي فروض الصالحين واقتري

وقول آخر⁽⁵⁹⁾ :

أصون عرضي بمالي لا أدنسه لأبارك الله بعد العرض بالمال

أحتال للمال أن أودي فأجمعه ولست للعرض أن أودي بمحتال

فالشعر حافل بذكر العرض والشرف والعفة لأنها حلية الرجال، ومفخرة الأبطال فالخنساء في مراثيها لأخيها صخر حفية بعفته واستحيائه أن يفعل الفاحشة أو يتبع بنظراته النساء⁽⁶⁰⁾.

لم تره جارة يمشي بساحتها لريية حتى يخلى بيته الجار

على انه اكثر حياء من فتاة مخدرة، وأعظم شجاعة من أسد فاتك⁽⁶¹⁾ :

وأحيامن مخبأة كعاب⁽⁶²⁾ وأشجع من أبي شبل هزير⁽⁶³⁾

أضف إلى ذلك إشادة الجميع بعفة الحبيبة البخيلة، وتمنعها وبخلها في وصال حبيبها، قال علقمة بن عبدة واصفا حبيبته⁽⁶⁴⁾ :

⁽⁵⁸⁾ شرح ديوان لبيد ص 46 - 47.

⁽⁵⁹⁾ التبريزي: ديوان الحماسة ج 2 ص 253 - 320

⁽⁶⁰⁾ ديوان الخنساء ص - 52، الحوي: الحياة العربية ص 364 - 365، حسن: حضارة ص 96، سالم

ص 445

⁽⁶¹⁾ ديوان الخنساء ص 48

⁽⁶²⁾ الكعاب النهدي، لسان العرب مادة كعب

⁽⁶³⁾ الهزير: من أسماء الأسد لسان العرب مادة هزير

منعمة لا استطاع كلامها على بابها من أن تزلز رقيب

إذا غاب عنها البعل لم تقش سره وترضى إياب البعل حين يؤول

فالعفة طبيعة فيها ولا سبيل إلى محادثتها لأنها ليست بحاجة إلى رقيب على بابها فهي تراقب نفسها، ولا تبوح بسر زوجها الغائب، وقد كان الرجل منهم يصون حرمة جاره، وصاحبه كصيانة الابنة والأخت والزوجة.

وعلى ما يبدو أن غيرة العربي على النساء مازالت مضرب الأمثال، ولذا قالوا: "كل شيء مهة ما خلا النساء وذكرهن"⁽⁶⁵⁾ "أي أن الرجل يحتمل كل شيء حتى يأتي ذكر حرمة فيمتعض حينئذ فلا يحتمله، وكل شيء جميل ذكره إلا ذكر النساء، ولذلك عزوا أحد أسباب الوأد إلى ذلك.

وقد رووا أنه من شدة غيرة العربي على النساء أن عبد الله بن المضرجي - القتال الكلابي - كان يتحدث إلى أبنه عم له يحبها، فحضر أخوها زياد، ورأهما فأقسم لئن رآه ثانية ليقتلنه، فلما كان بعد ذلك بأيام رآه عندها فأخذ السيف، وبصر به القتال فخرج هاربا وخرج في أثره، فلما دنا منه، ناشده القتال بالله والرحم، فلم يلتفت إليه، فبينما هو يسعى، وقد كاد يلحقه وجد رمحا مركوزا⁽⁶⁶⁾، وسيفا فأخذه وعطف على زياد فقتله وقال⁽⁶⁷⁾:

نهيت زيادا والمهامه بيننا وذكرته أرحام سعدوهي ثم

فلما رأيته أنه غير منته أملت له كفي بلان مقوم

ولما رأيته أنني قد قتلته ندمت عليه أي ساعة منام

(64) المفصلية ص 391 ط3، الحوي: الحياة العربية ص 365، حسن: حضارة ص 86

(65) الميداني: مجمع الأمثال ج 2 ص 132 - الحوي: الحياة العربية ص 366

(66) مركوزا مغروزا لسان العرب مادة ركز

(67) الأغاني ج 24 ص 170 - 171، الحوي: الحياة العربية ص 367

حين رأى معقل بن خويلد الهذلي امرأته تنظر إلى رجل، جرد سيفه، وضربها، فأخطاها وأصاب يدها فبترها، ونجت من الموت⁽⁶⁸⁾. فالغالب في ثأر العرض الذبح بقطع الرأس عن الجسد غسلًا للعار⁽⁶⁹⁾.

وكان يغار العربي من الغزل في المرأة التي يحميها، لأنه اعتبر ذلك جرح لشرفه. ولعلنا نتساءل عن الكيفية التي تم بها حدوث ذلك، في الوقت الذي سمعنا عن ممارسة البعض منهن للمجون والبغاء؟ وفي الوقت الذي تزوجت فيه المرأة أكثر من رجل، واتخذت الأخدان. ففي كل مجتمع العنيف والفاجر، والعامل والماجن، وإن كان بعضهم قد مارسه فمع الإماء لان الإماء هن اللواتي احترفن البغي، ونصبن الرايات على أبوابهن، وكن محقرات، ونذر أن كن من العرييات⁽⁷⁰⁾ أضف لذلك أن معرفة بعض النساء لتعدد الأزواج، واتخاذ بعضهن الأخدان كان بسبب فقر أسرهن، والوضع الاقتصادي المتدني لهن. ولعل الخلاعة والمجانة لم تكن مما يتفاوضون عنه، فامروء القيس واحد من الذين طردوا بسبب خلاعتهم⁽⁷¹⁾. لان ذلك يجر عارا على القبيلة ومذمة.

5 - العصبية:

للقبائل العربية دستور عري في عام يشترك فيه كل أفراد القبيلة ينحصر في كلمة واحدة هي العصبية، وهي تعني أن يدعوا الرجل إلى نصره - عصبته - قومه الذين يتعصبون⁽⁷²⁾ - والوقوف إلى جانبهم ضالمين أو مظلومين فشعارهم انصر أخاك ظالما أو مظلوما⁽⁷³⁾.

(68) الترماني (عبد السلام) الزواج عند العرب في الجاهلية والاسلام 1404 هـ 1984 م ص 273 يختصر

إلى الترماني: الزواج عند العرب

(69) علي: المفصل ج 4 ص 574

(70) انظر فصل الأسرة.

(71) الشنقيطي: المعلقات العشر ص 5

(72) لسان العرب مادة عصب.

(73) الميداني: مجمع الأمثال ج 2 ص 334

عد ذلك وسيلة من وسائل التكتل الأساسية بين أفراد القبيلة في غياب أية وسيلة أخرى ثابتة، فمن مصلحة القبيلة أن تكون يدا واحدة في كل الأحوال لأنها إذا انقسمت على نفسها في أمر ما تلاشت، فالمصلحة تقتضي وجود التضامن الشديد، إذ أن القبيلة معرضة للتنقل، والسعي وراء الكلاً أو الماء، وهو ظرف قد يؤدي إلى التشتت، ومن ثم الاندثار كوحدة اجتماعية، أضف إلى ذلك أن القبيلة محاطة بالأعداء، وانقسامها معناه ضعفها وتلاشيها، لذا فقد أحس كل فرد في القبيلة بأنه مدين في كل شيء عزيز عنده إلى قبيلته فهي التي حمته وترعرع بين ظهرانيها حتى صار رجلاً، فكان لزاماً عليه أن يخلص لها، ويتفاني في الدفاع عن شرفها، فالعصبية ضرورة من ضرورات الحياة، بل عماد الحياة نفسها، بها يحتمي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وماله، ومن شروطها على الفرد الوفاء الذي لأحد له لإخوانه كقول الشاعر⁽⁷⁴⁾:

فاحفظ عشيرتك الانين أن لهم حقاً يفرق بين الزوج والمتر

أما مصدر قوة العصبية فهو شعورهم أنهم أفراد أسرة واحدة، يتغلغل في عروقهم دم واحد هودم أبيهم القديم. وأن كنا قد وجدنا في القبيلة من ينتمي إليها من غير أبنائها الصرحاء كالموالي، والعبيد - والحلفاء 000 الخ إلا أن صلب القبيلة في أبنائها الذين يردون نسبهم إلى أصلها، أضف إلى ذلك أن هؤلاء المنتمون إلى القبيلة كانت تربطهم مع القبيلة المصلحة المشتركة، و النسب العام الذي يرد العرب انفسهم جميعاً إليه. شملت هذه العصبية أهل الوبر، وأهل المدر على السواء فأهل المدر وإن تحضروا واستقروا وأقاموا في بيوت ثابتة، فقد بني نظامهم الاجتماعي والسياسي على العصبية، فتألفت الحواضر من شعاب ومواقع تكونت بدورها من جماعات ربطت بينها روابط الدم والقرباة، فإذا حدث حادث لواحدة منها، هبت للنظر فيه واتخاذ ما ينبغي اتخاذه من موقف، لأنها الشعور بالصلة بين أفراد

(74) حتى: تاريخ العرب ص56، خسروم: الغربة ص23

الجماعة الواحدة، وهذا ما تفاخروا به، وأهلهم للسيادة، فها هو المنقب العبدى يفخر بأصله قائلاً⁽⁷⁵⁾:

أنا بيتي من معد في النرى ولي الهامة والفرع الأشم

وكذلك العباس بن مرداس بقوله: ⁽⁷⁶⁾

نقاتل أحسابنا برماحنا فنضربهم ضرب المنيذ الخواما

قد يتسامح العربي في دينه، أما عصبية فلا تسامح بها، قال دريد بن الصمة⁽⁷⁷⁾:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وأن ترشد غزية ارشد

وقول غيره⁽⁷⁸⁾،

ولقد علمت بنو النجار أنني أنود عن العشيرة بالحسام

ويتطور القوى المنتجة، وتلاشي الملكية الجماعية، وظهور الملكية الخاصة كما ذكرنا في فصل سابق فتفتت العصبية إلى عصبيات، وظهرت عصبيات من نوع جديد مبنية على أساس المصلحة فبدت بمظاهر هي:

أ - عصبية الأقارب وذوي الأرحام:

كان ذوو القربى والأرحام يتناصرون كما قلنا ظالمين أو مظلومين حتى لو كانوا مغايرين في العقيدة والميول، لأنها عندهم أقوى من الإيمان الديني⁽⁷⁹⁾، فيتضامنون في جمع الدية المطلوبة منهم مقابل الدم الذي أراقه أحدهم وهذه الدية تدفع لاهل القتل الذين هم ذوو رحمة وقرباه، والذين جعلتهم تقاليد عصبية الأرحام القريبة أصحاب

⁽⁷⁵⁾ ابن سلام: النسب ص 44 - 45 - المفضليات ص 294

⁽⁷⁶⁾ الجاحظ: البيان والتبيين ج 3 ص 70

⁽⁷⁷⁾ الاصمعيات ص 113، التبريزي: ديوان الحماسة ج 1 ص 337، الأغاني ج 10 ص 8 جرجس: أديان

ص 141-142، شريف ص 33.

⁽⁷⁸⁾ ديوان حسان بن ثابت ج 1 ص 338.

⁽⁷⁹⁾ شريف ص 53.

الحق في دمه، والسلطان المنصور في المطالبة به، فتوزع عليهم، ومن هنا جاء جنوح الرجال إلى اعتبار انفسهم أصحاب الحق في الأثر دون النساء والأطفال لانهم هم الغارمون⁽⁸⁰⁾.

ظهرت هذه العصبية واضحة فيما بعد الاسلام حيث وقف بنوهاشم يحمون النبي صلى الله عليه وسلم، فقاطعتهم قريش من أجل ذلك وحصرتهم في أحد شعاب مكة ثلاث سنوات⁽⁸¹⁾.

ب - عصبية القبيلة:

تضامن أفراد القبيلة تجاه القبائل الأخرى في الحروب والدماء، والدفاع عن المصالح، والتبعات المشتركة، وتناصروا حسب شعار القبلي السابق الذكر انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، وتعاونوا على المغارم لأن أي اعتداء على أي فرد في القبيلة، إنما هو اعتداء على الجميع، فإذا نشبت حرب بين قبيلتين تضامن أفراد كل قبيلة في الدفاع والهجوم مهما كان الباعث على هذه الحروب بدافع العصبية القبلية، حتى لو كانت ميولهم وعواطفهم متباينة، فمن يقرأ أخبار المواقع التي سميت أيام العرب يلاحظ قوة هذه العصبية

ج - عصبية الأحلاف:

عقدت القبائل الضعيفة الأحلاف مع القبائل القوية حفاظاً على وجودها كما سبق ذكره فنشأت بين هذه القبائل المتحالفة عصبية دفعتهم إلى التضامن في الحروب والتعاون في تبعات الدماء⁽⁸²⁾، لكن هذه العصبية ليست أصيلة أنها حالة طارئة اقتضتها ظروف المصلحة المشتركة على عكس عصبية الأرحام أو العصبية القبلية.

(80) المحبر ص 324، جامع الأصول ج 4 ص 275، دروزة: عصر النبي ص 277 - 278

(81) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 375 وما بعد، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 336 الكامل في التاريخ ج 2 ص 88.

(82) انظر فصل القبيلة

ففي مكة ظهر نوع من هذه العصبية بني على أساس المصلحة التجارية حيث عقد حلف المطليبين، ولعقة الدم، والفضول وغيرها⁽⁸³⁾ فضعفت الروابط المتينة على أساس من قرابة الدم، ونشأت روابط جديدة موحدة على أساس من هذا الشعور التجاري. وبذلك نرى أن العصبية تدرجت قوة وتأثيراً من عصبية الأسرة إلى عصبية العشيرة فالفخذ فالبطن حتى وصلت إلى عصبية القبيلة والعصبية الناشئة عن الحلف⁽⁸⁴⁾، وهذا التفاوت في قوة العصبية، والتأثير به، والاستجابة له، متسق مع طبائع الأشياء، لأن العصبية الاجتماعية سواء منها عصبية الأرحام أو عصبية القبيلة، أو عصبية التحالف حاجة طبيعية في حياة المجتمع الذي يعيش في طور البداوة، فلا يمكن حفظ التوازن والحقوق والدماء في هذا الطور بدونها، وقد أخذت عصبية التحالف في الازدياد في أواخر العصر الجاهلي فتكتلت القبائل في مجاميع كبيرة إحساساً منها بأنها تستطيع أن تعيش في مجالها الضيق فهي بحاجة إلى غيرها من القبائل توأخيها وتربط مصيرها، وكان هذا الميل إلى التحالف، والتجمع مسائراً لتطور الأوضاع الاجتماعية، فشملت كل منتم إلى القبيلة الموالي والرقيق والجار، ولم تعرف تفريقاً في هذه الناحية فكان على كل من ينتمي إلى قبيلة، ويحمل اسمها أن يتعصب لقبيلته ويذود عنها.

د — عصبية التقاليد:

المقصود بذلك التعصب للعادات والتقاليد المتوارثة، وشدة التمسك بها، وقد كان هذا مما هوراسخ في المجتمع العربي.

بحيث كان يعد فضيلة لاغنى عنها وجزءاً من حياة المجتمع لا ينفصل عنه ولو أدى إلى الحرب وإراقة الدماء، والمواقف المهلكة المخرجة، قال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ"⁽⁸⁵⁾، وقوله عز وجل "إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ"⁽⁸⁶⁾.

(83) انظر فصل القبيلة

(84) ابن خلدون: المقدمة ص 128 – 129

(85) سورة البقرة: الآية 107

وقد تركت هذه العصبية أثرا في الحياة الاجتماعية والسياسية لأنها ضرورة من الضرورات اللازمة بالنسبة إلى الحياة في الجاهلية، ولأنها الحائل الذي يحول بين الفرد، وبين الاعتداء عليه، فهي الرادع الذي يمنع المستهترين بالسنن من التناول على حقوق الناس. بحمايتهم من عبث العابثين⁽⁸⁷⁾، ودفعت الناس بعضهم بعضا، وصانت حقوقهم، وكراماتهم، وحياتهم اجتماعيا، ولكنها حالت دون تكوين مجتمع واحد كبير، على العكس أوجدت مجتمعات صغيرة لكل منها كياناتها السياسي الخاص، وساعدت في عدم الاستقرار لكثرة الأطراف، وحتمية التنازع بينها نظرا لظروف البيئة العربية من الناحية الطبيعية والاقتصادية، وأوجدت الرغبة لدى العقلاء، وأصحاب الرأي إلى ضرورة توجيه العصبية توجيهها قوميا ودينيا،

6- الثأر:

نتاج طبيعي للعصبية، وامتداد لها، وهو يكمل نفس المهمة في الحفاظ على كيان القبيلة عن طريق مقابلة الاعتداء عليها باعتداء يهدف القائمون به إلى أن يكون رادعا، لأن الدم لا يغسل إلا بالدم، وقد أملت طبيعة المحيط الذي يعيش فيه العرب عليهم هذا العرف لأنه لولا الخوف من الأخذ بالثأر لعم القتل الحياة. ففقر البادية، والضنك في العيش جعلت الأعرابي يرى أن من حقه الاستيلاء على كل ما يراه، وإزهاق الأرواح بسبب ذلك، وقد حد قانون الأخذ بالثأر من ذلك، ووضع قيودا من طبيعة الحياة التي يحياها⁽⁸⁸⁾.

ولعل ذلك صار سنة متبعة، ومسألة هامة في حياة القبيلة العربية، والغرض منه حمايتها لذلك اعتبروا أن القبيلة التي لم تأخذ بثأرها ضعيفة، وتسقط بين القبائل فغاية أو مغزى الثأر عندهم حماية الحمى كقول الشاعر⁽⁸⁹⁾:

(86) سورة الزخرف: الآية 23

(87) علي: المفضل ج4 ص 397.

(88) علي: المفضل ج4 ص 398 - 399

(89) علي: المفضل ج4 ص 350 حاشية، يحيى: العرب في العصور القديمة ص 370.

ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاه وأرمي من رماها بمنكب

وهذا شيء طبيعي في مجتمع لاتحكمه حكومة منظمة، تقيم الحدود وترعى القانون بسلطانها، وانما كان مجتمعا يعتمد في صيانة حقوقه على قوة الأفراد والجماعات، فمن لا يجد الانتصاف لنفسه لم يجد قوة تنتصف له، فالاحتفاظ بوحدة القبيلة، والأخذ بالثأر أمرا مقدسا أوجب على الثائر أن يدرك بثأره أويموت دونه، فإذا لم يدرك بثأره ينتقل هذا الواجب إلى ابنه وحفيده⁽⁹⁰⁾، وكان ذلك سلعة تورث من جيل إلى آخر وقد حض عنتره على أدراك الثأر بقوله⁽⁹¹⁾:

يا قيس أن صلورنا وقات بها نار بأضلعنا تشب وقودها
فانهض لأخذ الثأر غير مقصر حتى تبيد من العداة عليها

أثناء ذلك كان يلتزم الثائر مراسيم خاصة. فهو يتجافى النساء، ولا يتطيب أويتدهن، ولا يشرب الخمر، لأنه يرى أن ذلك ضريا من التعيم والبهجة لا تليق بنفس حزين موتور، قد تلهى وتشغل عن الجد في طلب الثأر قال المهلهل في مناجاة كليب⁽⁹²⁾:

خذ العهد الأكيد على عمري بتركي كل ما حوت الديار
وهجري الغانيات وشرب كأس ولبس جبلة لاتستعار
ولست بخالع درعي وسيقي إلى أن يخلع الليل النهار
والأقبيل سرة بكر فلا يبقى لها أبدا ثأر

⁽⁹⁰⁾ شريف ص 35

⁽⁹¹⁾ ديوان عنتره بن شداد ص 49

⁽⁹²⁾ الحوي: الحياة العربية ص 277، حسن: حضارة ص 97

وقد حلف أمرؤ القيس ألا يغسل رأسه، ولا يشرب خمرا حتى يدرك بثأره لأبيه، فلما أدرك ما يشفيه قال⁽⁹³⁾:

حلت لي الخمر و كنت امرأ عن شربها في شغل شاغل
فاليوم أسقى غير مستحقب إثمأ من الله ولا واغل

وبقي ذلك إلى بعد الاسلام فقد حلف أبوسفیان ألا يدهن ولا يقرب النساء حتى يأخذ بثأره لقتلى بدر⁽⁹⁴⁾، إذا لا بد من الثأر مهما طال الزمان، لأنه لا ينالم من آثار⁽⁹⁵⁾ حتى ينال مناله من الأخذ بثأر القتل قال الشاعر⁽⁹⁶⁾:

سلاح امرئ قد يعلم الناس أنه طلب ثارات الرجال مطلب

لذا فقد ضرب المثل بمن أدرك بثأره وقيل للواحد منهم البيهس⁽⁹⁷⁾ وكانت العادة أن يكون الثأر كفوءا لدم القتل ومتى حصل ذلك قالوا لهذا النوع من الثأر الثأر المنيم⁽⁹⁸⁾ قال أبو جندب الهذلي⁽⁹⁹⁾:

دعوا موثى نفاثة ثم قالوا: لعك تسبت بالثأر المنيم

وبعد الأخذ بالثأر المنيم تبكي النساء كقول الشاعر⁽¹⁰⁰⁾:

من كان مسرورا بمقتل مالك فليات نس وقتنا بوجه نهار
يجد النساء حوا سرا يندبنه يلطمن حر الوجه بالأسحار

(93) ديوان امرؤ القيس ص 361، المبرد: الكامل ج 1 ص 219، الأغاني ج 9 ص 88، اللؤسي ج 3 ص 26، علي:

المفصل ج 4 ص 400، حسن: حضارة ص 97.

(94) مغازي الواقدي ج 1 ص 121،

(95) داني، مجمع الأمثال ج 2 ص 22

(96) يحيى: العرب في العصور القديمة ص 369

(97) تاج العروس مادة بهس، علي: المفصل ج 4 ص 401

(98) لسان العرب مادة ثأر، تاج العروس مادة ثأر، علي: المفصل ج 4 ص 400

(99) علي: المفصل ج 4 ص 400

(100) صبيح الأعشى ج 1 ص 405، نهاية الأرب ج 3 ص 22، علي: المفصل ج 4 ص 401، حسن حضارة ص 99

فالنساء عامة يؤججن الصدور حفيظة ويلهبن النفوس حمية بثأر القتل، قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر تحرض قومها⁽¹⁰¹⁾ :

ولا أسألم قوما كنت حربهم حتى تعود بياضاً جونة⁽¹⁰²⁾ القار
ولا نوم حتى تقودوا الخيل عابسة ينبئن طرحاً بمهرات وأمهار
أوتحفروا حفرة فاموت مكتنع عند البيوت حصينا وابن سيار
أوترحضوا عنكم عارا تجللكم رحض العوارك حيضاً عند اظهر

وفي بعض الاحيان تقبل القبيلة دية عن القتل، تختلف باختلاف المكانة، ولوانها عند عامة القبائل مائة من الإبل، ودية الملوك والأشراف تصل إلى ألف بغير، ودية الصريح ضعف دية المولى أو المستلحق⁽¹⁰³⁾.

ودية الجار عشراء⁽¹⁰⁴⁾ فإذا دل هذا على شيء فانه يدل على التمايز الاجتماعي بين فئات المجتمع ويدل أيضا على الجبن والخوف والضعف، لان قبول الدية، أوتسليم الجاني عار على القبيلة لا تقبل به إلا عند التفاني وإيثارا للسلم، كما فعلت قريش في حرب الفجار حيث قام الصلح على أساس حساب القتلى، ودفع دية الزيادة⁽¹⁰⁵⁾.

أضف إلى ذلك فقد اقترنت فكرة الثأر بأوهام هي إلى الإيمان الديني أقرب منها إلى أي شيء آخر، انهم آمنوا أنه إذا قتل قتيلا خرجت من رأسه هامة، تصيح على

(101) ديوان الخنساء ص 63-64، الحوفي: الحياة العربية ص 281

(102) جونة الخابية مطلية بالقار لسان العرب مادة جون

(103) الأغاني ج 3 ص 65، الالوسي ج 3 ص 22 وما بعد، شريف ص 36

(104) سبق التعريف بها أثناء الحديث عن الكرم

(105) الكامل في التاريخ ج 1 ص 595، شريف ص 36

قبره، إذا لم يدرك بثأره اسقوني فاني عطش، فإذا أدرك بثأره سكنت⁽¹⁰⁶⁾ وفي ذلك قول الشاعر⁽¹⁰⁷⁾:

يا عمرو ألا تنر شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقول المسعودي: أن من العرب من يزعم ((أن النفس طائر ينسط في جسم الإنسان فإذا مات أوقتل، لم يزل مطيفا به، متصورا إليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشا 000 ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرا، ثم يكبر حتى يصير كضرب من البوم، وهي أبدا تتوحش وتصيح، وتوجد أبدا في الديار المعطلة والنواويس، وحيث مصارع القتلى، واجدت الموتى، ويزعمون أن الهامة لا تزال على ذلك عند ولد الميت في محلته بفنائهم لتعلم ما يكون بعده فتخبره به))⁽¹⁰⁸⁾. وإذا وقع القتل بين الأشقاء وأولاد العم، أو أبناء العشيرة، فهل تحول القرابة دون الأخذ بالثأر؟ لنستمع إلى قول قيس بن زهير العبسي⁽¹⁰⁹⁾:

شفيت النفس من حمل بن بار وسيفي من حنيفة قد شفاني
فإن أك قد برت بهم غليبي فلم أقطع بهم إلا بناني

فهو يصور عاطفته، وارتياحه بالانتقام، ولكنها عاطفة مشوبة بالأسى والندم، لأنه قتل قريبه بعد أخيه، فهما كالإصبع في الكف، وهل يعمل الكف دون الأصابع؟ فالقرابة لم تكن تحول دون الأخذ بالثأر وتصطرع أثناء ذلك عاطفة الثأر للعزیز، وعاطفة الحب للقريب القاتل فتتغلب الثانية قال أعرابي معبرا عن لوعته في قتل ابن له بسيف أخيه⁽¹¹⁰⁾:

(106) الأغاني ج3 ص105 حاشية، الالوسي ج2 ص311

(107) المبرد: الكامل ج1 ص326، الأغاني ج3 ص105، شريف ص36، الحوي: الحياة العربية ص495،

خان (محمد عبد المعين) الأساطير والخرافات عند العرب دار الحداثة ط3 1981 بيروت - لبنان ص55

يختصر إلى الأساطير والخرافات

(108) مروج الذهب ج2 ص132 - 133

(109) الحوي: الحياة العربية ص279

(110) التبريزي: ديوان الحماسة ج1 ص66، الحوي: الحياة العربية ص280

أقول للنفس تأساء وتعزية إحدى يدي أصابتني ولم ترد
كلاهما حلف من فقد صاحبه هذا أخي حين أدموه وذا وليدي

على هذا إذا قتل قتيل فأما الثأر وهو في أغلب الأحيان، وأما الدية، وأما العفو،
وعند أخذ الدية يلاحظ التمايز الاجتماعي ومكانة الرجل المقتول ولعل الطبيعة
وضعت لهم هذه السنة لتأديب سادات القبائل أو غيرهم ممن يحرضون العبيد أو غيرهم
من السوق على قتل خصومهم وأعدائهم لأنهم إذا عرفوا أن أهل القتل سينقمون
منهم بقتلهم حاربوا سفكة الدماء من اتباعهم ولا حقوقهم وبذلك ينظفون المجتمع
منهم، ويخلصون الناس من سفاكي الدماء، وبالتالي يحرصون على وحدة القبيلة.